

كذلك وبشيء من الحلم. كان ينبغي ألاّ نعدّ من الأحزاب المحظورة ملتنا التي لم يصدر منها ما يُخشى من الأحزاب المحظورة. فإن لم يخطئ تقديري، تتمثل الغاية من منع الفرق في رعاية الأمن العامّ كيلا تنقسم الدّولة إلى شيع متناحرة. فيسهل أن تشوّش صراعات الأهواء المتنافسة اجتماعات هيئات التّأخين ومجالس الشورى والتّدوات البلديّة ومؤتمرات الشّعب وحتّى العروض العامّة بينما أخذ البعض يتّخذون العنف مهنة وخدمة مأجورة. لكن في حالتنا نحن الفاترين عن الأمجاد أو المناصب، لا حاجة بنا مطلقا إلى الاشتراك في مثل تلك الاجتماعات، ولا شأن أبعد عن أذهاننا من الشّأن العامّ؛ نفّر شأننا عامّا واحدا يعني الجميع، هو العالم. أمّا عروضكم فنتخلّى عنها سيما ونحن لا نغير أصولها المستمدّة كما نعلم من معتقداتكم الباطلة، والأغراض التي تتناولها أيّ اهتمام؛ في نظرنا، ليس في ما يقال أو يشاهد أو يُسمع شيء في مثل جنون السّرك أو سفاهة المسرح أو وحشيّة الحلبة أو سخافة ألعاب القوى. فيم نسيء إليكم إن أثرنا عليها ملاذّ أخرى؟ إن رفضنا مشاهدة تلك الأنواع من التّسلية فالخسار، إن وُجد، علينا لا عليكم؛ إننا نشجب متعكم، ومتعنا في المقابل لا تعجبكم؛ > ولئن أمكن للأبيقوريين* أن يحدّدوا حقيقة الدّعة هي دعة النّفس، فمشاغل الملة النّصرانيّة أعظم.

سأعرض الآن مشاغل حزب النّصارى، فأدحض السّوء المفترى عليها وأبيّن أنّها حسنة إن كشفت لكم الحقيقة؛ نحن جسد يؤلّفه الشّعور بالانتماء المشترك لديننا ووحدة مذهبنا ورباطة رجائنا، نؤلّف عصبه وجمعيّة لنهجم كقوّة مسلّحة على الله بصلواتنا، وذاك عنف يرتضيه الله؛ نصلي كذلك من أجل أباطرتنا ومن أجل أعوانهم ومفوضيهم، وليستتب الأمن ويسود السّلام كلّ شيء وترجأ نهاية العالم. تجتمع لنذكّر كتاب الله، كلّما أذرتنا أو دعتنا إلى الادّكار آية من أحوال زماننا الحاضر؛ فنغذي بكلام الله إيماننا، ونوطّد رجاءنا، ونعزّز ثقنتنا، ونثبّت تمسّكنا بتعاليم ديننا. اجتماعنا فرصة كذلك للوعظ والمحاورة بمقتضى الشريعة الإلهيّة؛ إذ يكتسي الحكم على أعمالنا أهميّة كبرى لدى أناس يثقون بأنّ الله يراهم، وإنّه لإنذار شديد يسبق حكم الآخرة أن يفصل أحدنا، إن أخطأ، عن المشاركة في الصّلاة والاجتماع وكلّ الشّعائر المقدّسة، يرأسنا في شعائرتنا شيوخ مزكّون نالوا هذا الشّرف لا بالمال بل بشهادة الجميع بفضلهم؛ إذ لا دخل في الشّأن الإلهيّ للمال؛ حتّى إن وُجد لدينا صندوق فإنّه لم يُجمع من رسوم مفروضة كما لو كان في الدّين بيع وشراء؛ بل يتبرّع كلّ منّا بمبلغ بسيط شهريّ أو متى شاء، ولفقط إن شاء، ولفقط إن استطاع؛ فلا أحد مكره على الإسهام، بل يعطي كما نوى. تلك بمثابة ودائع التّقوى؛ فهي لا تُنفق على المأكّل والمشرب

أخوّة النّصارى في الله: كما في الإسلام "واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألّف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا" آل عمران 103. "إنّما المؤمنون إخوة" الحجرات 10. هذا عدا الأحاديث الشّريفة.

وذمهم القصوف، بل على إطعام ودفن المساكين، وعلى البنات والبنين الذين بلا آباء ولا مال، والخدم المستئين، وعلى من فقدوا كل مالهم، وعلى من هم في المناجم أو الجزر أو السجون، إن كان ذلك بسبب انتماؤهم إلى دين الله، إذ يصيرون في كفالة ملتنا، لكن عمل البر هذا التابع من الحبة بصمنا عند البعض، فتراهم يقولون: "انظر كيف يحب بعضهم بعضا"، فهم بالعكس يكره بعضهم بعضا، أو "انظر استعدادهم للموت كل فدا الآخر"، فكلّ عندهم على أتم استعداد لقتل الآخر، ولتسمية بعضنا بعضا إخوانا يجنّ جنونهم، لا لسبب في ظني سوى أنّ كلّ تسميات القرابة عندهم تعني مودة متصنعة؛ لكننا إخوانكم أنتم أيضا على شرع الطبيعة أمنا جميعا حتّى إن خلوتهم من الإنسانيّة لأنكم إخوة سيئون، ولعمري ما أجد أن يدعى ويعدّ إخوانا من يقرّون بأب واحد هو الله، وسقوا من روح واحد، روح القداسة، ونزلوا من رحم واحد، رحم الجهالة، إلى نور واحد، نور الحقيقة، لكن قد تستحقّون بشرعيّة أخوتنا لأنّ لا مسرحيّة تتغنى بها، أو لأننا إخوة في ملك الأسرة الذي يقطع تقريبا عندكم أصرة الأخوة، نظرا إلى هذه الوشائج التي توحدنا قلبا وروحا، لا نتردد قطّ في تقاسم ما في أيدينا من متاع الدنيا، فكلّ شيء مشاع بيننا ما عدا أزواجنا، الشراكة بيننا لاغية في هذا المجال الذي فيه وحده يمارس المشاعيّة غيرنا، حيث لا يستحلّون فقط أزواج أصحابهم بل يهدون كذلك زوجاتهم بتساهل لأصحابهم على مذهب اثنين من حكماؤكم الأقدمين، سقراط* سقراط وكانون يعبران زوجتيهما: غير ثابت، المعروف عن كسنتيّة زوجة سقراط

اليوناني وكانون* الرومانيّ اللذين أعارا لصديقيهما زوجتيهما إذ عقدا عليهما لتنجبا لهما في بيوت غيرهما، ولا أدري إن فعلتا مكرهتين حقّا؛ إذ لم تحرصان على العقّة وقد فرّط فيها زواجهما بتساهل! فأني مثال بليغ على حكمة أتيكّة* ورضانة رومية: قوادان هما فيلسوفكم ورقبيكم، ما العجب إذن في أن تتجلى تلك الحبة في عشاءات مشتركة؟ إنكم تهولون على عشاءاتنا البسيطة مستنكرين طابعها الإجماعيّ، وواجدين فيها فضلا عن ذلك صورة من إسرافنا، نحن لا شك المقصودون إذن بقولة ديوجينيس*: "أهل ميغارة* يأكلون كأنهم يموتون غدا، وبينون كأنهم لا يموتون أبدا"، لكن أسهل أن يرى المرء القذى في عين غيره من أن يرى الخشبة في عينه*. لقد ختمّ الهواء من جيشّوات وجهائكم من خطباء الشعب وأعضاء مجالس العشائر والنظار البلديين؛ ولا بدّ للساليين* إن أعدوا لمأدبة أن يستدينوا، ولا بدّ

الأصغر منه سنّا وأمّ بنيه الثلاثة هو رعونة مزاجها وضيقتها بفقر زوجها، أمّا كاتون فيعد موت زوجته ليقينية ارتبط بعلاقة بأمة له حتّى أجبره ابنه على الزواج في سنّ 80، لكنّ حفيد حفيده كاتون الأصغر عُرف بسوء حظه مع النساء حسب أفلوطرخوس: (أخته وزوجته الأولى أنيلية، وحتّى الثانية مرقية التي تنازل عنها لصديقه هرتنسيوس).

ميغارة: مدينة أتيكّة*.

أسهل أن ترى القذى في عين غيرك من أن ترى الخشبة في عينك: من كلام المسيح، انظر متى 7

أباتوريّة: Apaturia عيد يونانيّ سنويّ في كلّ المدن الإيونيّة، من طقوسه تقديم المواليد منذ المهرجان السابق لأبائهم.

ديونيسيوس: Dionysus باخوس*. توجد صورة كاملة لشصّي مراسيم الأسرار الديونيسيّة في "بيت الأسرار" في مبيوم*.

اسم عشاءنا يعني الحبة: يقصد Agape وهي كلمة يونانيّة (رّما من أصل عبرانيّ شبيهة بلفظة "أحبّ" في العربيّة) وقد اقترن بسرّ القربان المقدّس Eucharistia (الذي هو غير الذبيحة Hostia).

من كتبة وحسبة لإحصاء التفقات في الاحتفالات بجبي عُشر هرقل*. ويعين الأفضل بين الطهارة لشعائر الأسرار الأبوتورية* والديونيسية* والأتيكية*. ولأدخنة وليمة سارابيس* يهت رجال الإطفاء مشتمين: مع ذلك لا حديث لكم إلا عن مائدة النصارى. عشاؤنا نحن يعرض في اسمه بالذات غايته: فاسمه عند اليونان يعني المحبة*: ومهما أنفق عليه، فريح هو الإنفاق باسم البر إن كنا بتلك اللقمة نساعده المعوزين. لا كما عندكم حيث يجتهد الطفيليون في الحصول على شرف مصادرة حرّيتهم لقاء إشباع بطونهم وسط ذلّ الاكتداء. بل كما عند الله حيث يولى الوضعاء مزيدا من الاعتبار. إن كان مقصد الوليمة نبيلاً فقياساً عليه احكموا على بقية جوانبها: وبما أنها نابعة من فريضة دينية، لا يُسمح فيها بالاستخذاء ولا الاستعلاء. لا نمد أيدينا إلى الطعام قبل توجيه صلاة إلى الله: ثم نأكل الرماق ونشرب في حدود اللياقة. نأكل كأناس يذكرون فرض عبادة الله حتى آناء الليل ونتسامر كأناس يعلمون أنّ الله يسمعهم. بعد غسل أيدينا وإشعال الأضواء يُدعى كل فرد إلى وسط الحلقة ليرتل للربّ أناشيد من الكتاب المقدس أو ما جادت به قريحته: بذلك تُختبر كفيّة شربه: وننهي عشاءنا بصلاة أخرى. ثم يتفرّق جمعنا. لا زمرا من المفسدين أو المتسكّعين أو العابثين المعريدين. بل حريصين على الاعتدال والأدب. دأب من اجتمعوا ليتغدّوا لا بطعام بل بالدين. اجتماعنا بهذا النحو مخالف للقانون إن كان فيه شبه بما يمنعه القانون. ويستحقّ العقاب إن شكّا أحد بما يُشتكى منه عادة بخصوص الاجتماعات الحزبية. أيّ شخص

اجتمعنا أبدا لإيذائه؟ في اجتا كما عند افتراقنا. نمتنع جماعياً وفردياً عن إيذاء أحد أو تكدير أحد: لما يجتمع الكرام الأخيار. لما يلتقي الأعفة الأبرار. لا يجب أن يُدعوا حزبا بل مجلسا موثقاً.

40 - ليسوا سبب كوارث الامبراطورية

بالعكس يجدر إطلاق اسم الحزب على عصابة المتأمّرين الحاقدين على أناس طيبين. على المتعطّشين لدم الأبرياء المتذرعين لتبرير حقدهم بتلك الدّعى الباطلة: أنّهم يرون النصارى سبب كل الكوارث العامّة وكلّ بلايا الشّعب > منذ ظهورهم. إن فاض التّبير* في رومية أو لم يغمر النيل بمياهه الحقول. إن أمسكت السّماء ماءها أو ماتت الأرض أو حلّت مجاعة أو انتشر وباء. فوراً يعلو الهتاف: "النصارى إلى الأسد": ويحكم. إلى أسد واحد كل هؤلاء؟ أخبروني أرجوكم. قبل تبريوس* أي قبل مجيء المسيح كم من كوارث أهلكت الأرض والمدن*؟ نقرأ أنّ جزر هيرة* وأنافيس* وديلوس* ووردوس* وقوس* اختفت في اللّجة مع آلاف السّكّان. ويذكر أفلاطون* أنّ أرضاً أوسع من إفريقية أو آسية هوت إلى قاع البحر الأطلنطي*: كذلك بلغت هزة أرضية ماء بحر كورنتوس* واقتطعت قوّة الأمواج لوقانية* الأرض والمدينة: orbem et urbem عبارة لاتينية متداولة فيها جناس مختلف. والمدينة تعني غالباً رومية. هيرة Hiera (جزيرة البركان حاضراً) وأنافيس Anaphes وديلوس Delos ووردوس Rhodos وقوس Cos: جزر في مياه اليونان وإيطالية حالياً. أطلنطيس: Atlantis أرض تقع قرب أعمدة هرقل (جبل طارق) ذكرها أفلاطون في حوارى تيمائوس وكريتياس. كورنثية: Corinthia منطقة يونانية في البيلوبونيز. لوقانية: Lucania منطقة صالرنو الحالية. استقرّ بها اللّوقانيون ومنها اشتقّ اسمها قديماً.

وأفردتها في شكل صقلية: ما حلت تلك الكوارث دون الإضرار بالسكان. أين كان إذاك. لا أقول النصارى مسقوه ألهتكم. بل ألهتكم أنفسهم. يوم غمر الطوفان الأرض كلها أو. كما يرى أفلاطون*. سهولها فقط؟ إذ تشهد على أنهم جاؤوا بعد ذلك الطوفان المدن التي ولدوا أو ماتوا فيها والتي شادوها فما كانت لتبقى قائمة إلى يومنا هذا لو لم تُشدد بعد الكارثة. لم تكن فلسطين قد استقبلت بعد اليهود النازحين إليها من مصر. ولا ضربت ملة النصارى فيها جذورها، لما التهمت نار نازلة من السماء بلادي سدوم وعمورة* المحاذيتين لها. وإلى اليوم ما زالت تنبعث هناك من الأرض رائحة الحريق. وإن وُجدت على الأشجار ثمار فما هي إلا تهيوّات للأبصار حالما تلمس تنقلب رمادا. حتى تسكية* وكمبانية* لم تكونا تشكوان بعد من النصارى لما

سدوم وعمورة: Sodoma, Gomorra مدينتان على البحر الميت قديما ذكر عقابهما في العهد القديم (سفر التكوين 19: 24-28، تثنية الاشتراع 29: 23، سفر الحكمة 10: 7) وإلى الآن يشهد بشترهم ففر يسطع منه الدخان ونبات يثمر ثمرا لا ينضج وعمود من ملح قائم تذكارا لنفس لم تؤمن. " يقصد زوجة لوط...) ويوسفوس وفيلون الإسكندرّي وذكرهما تاكلتوس وسترابون. وإجيل متى 10. وسدوم قرية لوط المذكورة في القرآن. والتبات المقصود من الباذجانيات له زهرة بنفسجية وثمره صفراء تنخرها فطريات فتبقى بداخلها بزور سوداء: solanum sodomaeum.

تسكانية وكمبانية: Tuscia, Campania منطقتان في إيطاليا. أولاهما بالشمال (اسمها القديم تسكية) والثانية في الجنوب. ولسينية: Iolsini مدينة إترسكية قديمة بتسكية دمّرها الرومان في 264 ق م. وهي اليوم تدعى أرفييتو.

بومبيوم: Pompeium مدينة قريبة من بركان وسيفوس الذي ثار في 79 م فطمرها تحت الحمم. وقعت فيها حفريات منذ القرن 19 وفي كلام ترتليانوس تناقض. فلئن لم تكن النصارانية إذاك قد انتشرت في كل إيطاليا. إلا أنها كانت موجودة برومية. إذ أشار هو نفسه إلى أنّ اضطهادها بدأ في عهد نيرون (54-68 م).

شبتت في ولسينية* نار أمطرتها السماء. وفي أهالي بومبيوم* نار هوت عليها من جبلها؛ كذلك لم يكن أحد بعد يعبد الله الحق برومية لما كان حنّبعل* يقدر عدد قتلى الرومان في كاتنة* كائلا خواتمهم بالصّاع؛ وكان أبأؤكم جميعا يعبدون ألهتكم كلها لما احتلّ السّينيون* الكابيتول*. وحسن أنّه كلّما وقع للمدن مكروه شمل نفس الدّمار المعابد والديار بحيث يمكنني تفنيد مزاعمكم بأنّه حصل بسبب تلك الآلهة. فهي أيضا راحت ضحيته. على امتداد الأزمان استحقّ الجنس البشري عقاب الله: أولا لأنّه لم يسع إليه بالطّاعات. ولأنّه كلّما عرفه جزئيا لم يلتمس ليّتيه. بل وخرق آلهة أخرى ليعبدها؛ ثمّ إنّه برفض البحث عن معلّم البراءة ديّان الذّنوب. انغمس في شتى الرذائل والخطايا. ولو التمس الله لعرفه إذ التمسّه. ولأطاعه إذ عرفه. ولخبر فيه إذ عرفه رحمته لا نقمته؛ فليعرفه الآن غاضبا كما كان في الماضي قبل ظهور اسم النّصارى. لم لا يدرك أنّ الشّرور أيضا تأتيه من لم يعلم أنّ منه الخيرات؟ هو مذنب في جنب من جحد نعماه. مع ذلك إن نقارن الكوارث الماضية بالحاضرة نجد أنّ تلك التي حدثت اليوم مذ من الله بالنّصارى على الأرض؛ فمنذ ذلك الوقت خفّت

حنّبعل: Hannibal 247-182 ق م قائد قرطاجتي في الحرب البونيقية الثانية 219-202 ق م عبر الألب. وحاصر رومية. بعد انتصاراته هزمه شيبون* في معركة زامة/ ساقية سيدي يوسف حاليّا على الأرجح. فرّ إلى سورية حيث اشتغل مستشارا لملكها ثمّ إلى بينينة فغدر به ملكها وأراد تسليمه للرومان فانحصر.

كاتنة: Cannae تقع في أبولية بشرق جنوب إيطاليا هزم فيها حنّبعل بولس إميلوس: 35000 قتيل وأسير مقابل 5700 السّينيون: Senones شعب من بلاد الغال قبل إنهم احتلّوا رومية إلا الكابيتول 300 ق م. يعرض أسوأ أزمتين في تاريخ الرومان ليظهر قلة نفع ألهتهم. لكنّ سيمافوس زعيم الحزب الوثني بعد قرن يذكرهما ليبيّن العكس!

تقواهم طغوى غيرهم في العالم. وبدأ يوجد شفعاء عند الله. أخيراً لما تنقطع عنكم أمطار الصيف والشتاء، وبيعت محصول الأرض على الانشغال. وأنتم منغمسون في القصف كل يوم، والحمامات والحانات والمواخير تشتغل بدون انقطاع. تقدّمون إذاك ليوبتر* ذبائح الاستسقاء، وتطلبون من الشعب السير حفاةً في موكبٍ إلى معبده، وتطلبون السماء في الكابيتول*. وترتقبون المزن من تساقيف معابديكم. معرضين عن الله الحق والسماء. أمّا نحن فنجان، وقد جفّ الصوم منّا العروق واعتصرنا التنسك عن كل مستلزمات العيش، وانقطعنا عن كل طبيبات الحياة، بضراعتنا إلى السماء ملتقّين بالمسوح، ومتمرّغين بالترّما، حتى نثير بالحنافنا رافة الله، فإذا فرنا برحمته حمدتم يوبتر* > وأغفلتم الله!

41 - فتلك الكوارث وُجدت دوماً وهي نذير للمؤمنين

وعقاب للكافرين

أنتم إذن مسببوا المضرّة للبشر. أنتم جالبوا الكوارث العامّة، بإعراضكم عن الله لتعبدوا الأصنام؛ ولا غرو فأرجح أن يغضب عليكم من تركتم لا التي تعبدون، وإلاّ فإنّها ظالمة إن أدت بسبب التنصاري حتى عبدتها الذين كان يجب إعفاؤهم من العقاب الذي استحقّه التنصاري. تقولون: "لكنّ هذا يردّ أيضاً على الهكّم إن كان يرضيه هو الآخر أن يتأذى عبده بسبب الكفرة". لتقبلوا أوّلاً بحكمة تدبيره في خلقه، ولن تجدوا إذاك في الأمر أيّ مأخذ؛ فإنّ من قضى منذ الأزل أن يصدر بعد نهاية العالم حكمه الأبديّ على البشر لا يتعجّل الفصل بينهم، الذي هو نصّ حكمه

فيهم، قبل نهاية العالم. في انتظار الموعد، يساوي في علاه بين كلّ البشر، موزّعا عليهم رحمته ونقمته؛ فقد شاء أن يشرك في نعمه جاحديه وفي بلاياه أوليائه، ليذيقنا جميعاً في مجرى حياتنا المشترك لطفه وبأساءه. ولأنّنا علمنا من لدنه هذه الحقائق نبغي رحمته ونخشى نقمته، بينما تستحقّون بكلّيتهما؛ لذا كلّ أرزاء دنيانا هي من الله لنا إن مسّتنا إنذار وهي لكم عقاب. لا نتأذى قطّ من تلك البلايا، فأوّلًا لا شيء يهّمنا في حياتنا هذه سوى الخروج منها سريعاً، ثمّ إن حلّت بنا ضراء تُعدّون أنتم مستحقّينها؛ لكن حتى إن مسّنا الضّرّ لعيشنا معكم جنباً إلى جنب، نساعد أكثر بتعرّف نبوءات إلهيّة تدعّم حقّاً إيماننا وثقتنا في رجائنا. بالمقابل إن كانت تلك البلايا خلّ عليكم بسببنا من الآلهة التي تعبدون، فلم تستمروا في عبادتها وهي بمثل ذلك الجحود وذاك الظلم، وكان أحقّ بها أن تساعدكم وتحميكم وسط عذاب التنصاري.

42 - الرّد على تهمة عدم اندماجهم اجتماعياً وقلة

جدواهم اقتصادياً

لكنّكم تطلبون عقابنا ببند اتّهام آخر، وتزعمون أنّنا لا ننفذ في شؤون الدّنيا؛ كيف يمكن أن يكون كذلك أناس يعيشون معكم جنباً إلى جنب، ويشاركونكم المأكل والملبس والسكنى وكلّ مستلزمات الحياة؟ فما نحن بالبراهمة أو زهاد الهنود المتنسّكين في الغابات والمنقطعين عن الحياة، نحن نذكر واجب الحمد لله ربّنا وبارينا فلا نرفض ثمرة أعماله، بل نأخذ منها باعتدال، دون تجاوز الحدّ ولا في غير الوجه الصّحيح؛ لذا لا نمتنع

عن ارتياد القصبة*، ولا السوق، ولا الحمامات، ولا الحوانيت والمتاجر ولا المعامل، ولا الفنادق ولا الأسواق الموسميّة وشتّى المعاملات الأخرى، إذ نطقن معكم نفس العالم. نركب السفن معكم، ومعكم أيضا نحارب* ونزرع الحقول ونتاجر. ونشترك معكم في شتّى الحرف، ونضع منتجاتنا لاستخدامكم؛ فلست أدري كيف يبدو لكم بلا نفع في شؤون حياتكم، ونحن بها ومنها نعيش*، صحيح أنّي لا أوّم احتفالاتك بعيدك، لكنني وفي ذلك اليوم أيضا إنسان مثلك؛ صحيح أنّي لا أغتسل عند مطلع الفجر لأعياد ساترنوس* كيلا أفقد الليل والنهار معا؛ لكنني أغتسل في ساعة معقولة أنسب للصحة، خُفظ دمي وحرارتي، فقد أبرد وأشحب وأقع ميتا إثر اغتسالي. ولا أجلس إلى المائدة في الشّارع في أعياد ليبر* كما اعتاد مصارعو الوحوش تناول عشاءهم الأخير، مع ذلك أكل من طعامك حينما رحّت. لا أشتري إكليلا أتوّج به رأسي؛ فقل فيم يعينك كيف أستخدم الزهور التي اشتريتها؟

نحارب معكم؛ بل كان بعض النّصارى يابون المشاركة في حروب الرّومان كما نرى في قصيدة لبرودنتيوس.

بها ومنها نعيش: cum quibus et de quibus uiuimus لأنّ ضمير الجمع الجور متشابه في التذكير والتأنيث ولغير العاقل يمكن أن يفهم أيضا "بكم ومنكم نعيش". لاحظ أنّ العامل الاقتصادي لعب دورا مهما في اضطهاد النّصارى: نجد مثلا في "أعمال الرّسل" 19: 23-40 أنّ شغيا حدث في أفسس ضدّ بولس وأيلوس بعد كساد صناعة التّمائيل لأرميس. وجد ترتليانوس في أواخر حياته يؤكد زهده في الدنيا كليّا. فيقول في كتابه "الرداء" 4: 5 "de Pallio" لا أدين بشيءٍ للسياسة ولا مهنة السلاح ولا المجلس البلديّ، ولا أسهر على وظيفة أو أهنّم بمنبر أو أرقب منصبا. لا أتشتم الجاري ولا أعبد منصات الحاكم ولا أرتو إلى مدارج الحامين ولا أكرّر القوانين ولا أرفع مجلجلا في آية قضايا. لا أمارس القضاء ولا الحرب ولا الحكم؛ فقد انقطعت عن الشّعب. لا شغل لي سوى نفسي. ولا أهنّم بغير ما يجب أن يكون همّي. في الاعتزال أكثر ممّا في البروز أنعم بحياة أفضل."

أراها أبهى مفروطة ومفترقة ومنسرحة؛ بل حتّى حين تُصفر في إكليل بأنوفنا نشتم الإكليل، فليبر من يشتمون بالشّعور شأنهم. كذلك لا نوّم عروضكم ومهرجاناكنم، لكنني أشتري ما يُعرض للبيع فيها إن طاب لي من الحالّ المحتصّة؛ صحيح أنّنا لا نشتري البخور لكن إن شكت منّا بلاد العرب فليعلم السبئيّون أنّ ما يُستخدم من بضائعهم حنوطا لموتى النّصارى أكثر وأعلى ممّا يُحرق بخورا لألهتكم. تقولون لا محالة إنّ مداخيل المعابد في تناقص كلّ يوم، فكم من النّاس يُلقون اليوم بنقود في صندوق العطايا؟ فعلا لا نكفي لمساعدة البشر وألهتكم المتسوّلة معا، ولا نرى من واجبنا أن نعطي لغير من يستجدينا؛ فليمدّ يوبتر* لنا يده مستعطيا فيتلقى إذاك صدقاتنا، فإنّ شفقتنا تعطي في الشّوارع أكثر ممّا يعطي ورعكم في المعابد. لكنّ ضرائب أخرى تتأدّى كذلك؛ يكفي أنّ أخرى تشكرنا نحن النّصارى المسارعين إلى سداد ما علينا لأمانتنا فإنّا نستنكف عن غشّ غيرنا؛ بحيث إن عوّض هذا ما نفقد الخزينة العامّة جرّاء الغشّ والكذب في بياناتكم الجبائيّة، فمن اليسير إذاك اعتبار النّقص الذي تشكون منه في أحد البنود موازنا بضمّان دفعنا في البنود الأخرى.

43 - لكنهم لا يمارسون المهن المنافية للأخلاق الكريمة

أعترف مع ذلك بصراحة أنّ البعض محقّون إن شكوا ربّما قلّة جدوى النّصارى في بعض الأنشطة؛ فما لهم أدنى خبرة بعمل القوادين أو الغواة أو وسطاء البغاء أو القتلة المحترفين، أو المسّمّمين، أو السّحرة، وكذلك الكهّان والعرفان والمنجمين. بل هو نفع ألاّ ننفع في تلك المجالات؛ مع هذا ما يأت من ضرر

بمخالصكم من ملّتنا يعوّضه بالتّحقيق عوننا في مجالات أخرى؛ إذ بكم تقدّرون خدمة لا أقول من يخرجون منكم الشّياطين، ولا أقول من يدعون الله من أجلكم، فقد لا تصدّقون بل أقول فقط من لا تخشون منهم شيئاً؟

44 - الولاة يظلمونهم فليس فيهم مجرمون

لكنّ لا أحد في الواقع يرى تلك الخسارة الحقيقيّة والجسيمة للدولة، ولا يعتبر ذلك الضّرر بالمجتمع لما ترتخصون نفوسنا نحن الأبرار، وتهترون دماءنا نحن الأبرياء، نُشهد على ذلك وقائع جلسات محاكمكم، أنتم الذين تشرفون يوميّاً على محاكمة المساجين وبأحكامكم تزنون لوائح أعمالهم؛ مرّ أمامكم كلّ أنواع المجرمين بشتّى عرائض الاتّهام؛ فهل من قاتل بينهم أو نشّال أو منتهك حرّيات أو هاتك أعراض أو سارق حرّامات سُجّل كمسيحيّ في نفس الوقت؟ أو حين تقدّمون للمحاكمة النّصارى بتلك الصّفة هل هناك بينهم من تسجّل عليه جرائم مائلة؟ كلاً بل من ذويكم تغصّ السّجون دوماً، من ذوم تنفّس المناجم دوماً، من ذويكم تسمّن وحوش حلياتكم دوماً، من ذويكم يوظّف المتعهدون فريق المجرمين لعروض الجالدة؛ لا مسيحيّ هناك إلاّ بصفته مسيحيّاً، أو إن وُجد عليه ذنب آخر، فما هو بمسيحيّ بعد.

45 - لأنّهم يتّقون الله ولأنّ الشّريعة أقدر من القوانين

الوضعيّة على ردة البشر

نحن وحدنا الأبرياء إذن؛ أو عجب أن يكون ذلك أمراً حتميّاً.

فإنّه حتميّ فعلاً؛ من الله نفسه تعلّمنا البراءة، وعلى الوجه الأكمل نعلمها فمن المعلّم الأكمل تلقيناها، ونراها بإخلاص فمن لدن خبير لا يُستخفّ به أمرنا بها، أمّا أنتم فمن حكم البشر تعلّمتم البراءة، وسلطة البشر كذلك أمرتكم بها؛ فليس لكم إذن نظام كامل يفرض مهابته ويقودكم إلى البراءة الحقيقيّة؛ فإنّ قدرة حكمة الإنسان على تبين ما هو خير حقّاً كقدرة سلطته على الإلزام به، وتضليل الأولى في مثل سهولة حدّي الثانية، ولعمركم ما الأئمّة، أن يقال: "لا تقتل" أم: "لا تترك للغضب إلى نفسك سبيلاً"؛ ما الأكمل، حظر الزّنا أم حرّم الشّهوة في اختلاجة الطّرف بمعزل عن النّاس؟ ما الأحكم، منع فعل السّوء أم حتّى كلمة السّوء أيضاً؟ ما الأتقن، النّهي عن الإساءة أم حتّى عن ردها أيضاً؟ بل تعلمون كذلك أنّ التي تبدو من قوانينكم تنحو إلى البراءة استعيرت من الشّريعة الإلهيّة لكونها الأقدم، فقد حدّثنا سابقاً عن قدم عصر موسى، لكن ما مدى سلطان القوانين البشريّة والحال أنّ الإنسان كثيراً ما يفلت منها بالتّخفيّ عنها عند ارتكاب جرائمه، وينتهكها أحياناً عن اختيار أو اضطرار؟ فكروا كذلك في قصر مدّة أيّ عقاب عندكم

ليس القانون الوضعيّ بمنزلة الشّريعة؛ في معنى قريب يقول فولتير: "لو لم يكن الله موجوداً لوجب إيجاده" لأنّه يضمن الإلتزام بالأخلاق والتّوأميس، ويقول دستوفسكي: "إن لم يكن الله موجوداً فكل شيء مباح". لكنّ العلمانيّين يعيبون على الشّريعة قلة مرونتها وصعوبة تطويرها، حرّم الشّهوة الأثيمة في اختلاجة الطّرف؛ إشارة إلى قول المسيح: "أقول لكم إنّ كلّ من نظر إلى امرأة لكي يشتهيها فقد زنى بها في قلبه" متى 6: 28 ويوافق ذلك ما جاء في القرآن: "قل للمؤمنين بغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إنّ الله خبير بما يصنعون، وقل للمؤمنات..." إلى آخر الآية 31 من النّور

فما هو بياق إلى ما بعد الموت: من هنا يستخفّ أبيقور* بكلّ عذاب وألم قائلاً: "إن كان خفيفاً فلا يُعتدّ به، وإن كان شديداً فما هو بدائم". الحقّ أنّنا نحن الذين يزننا إله بصير نحذر منه جزاءً أبدياً. نسارع وحدنا إلى البراءة كما يُنتظر: وإحاطة علمه واستحالة الاختفاء عنه وشدة عذابه لا الطويل بل السرمديّ. نخشاه هو الذي يجب أن يخشاه أيضاً من يحكم. الله لا الواليّ نخشى.

46 - الردّ على من يعدّونهم فرقة فلسفيّة

ثبتنا في اعتقادي أمام دعاكم علينا المطالبة بدم النصارى: عرضنا وضعنا كاملاً، وكيف يمكن إثبات أنّه فعلاً كما قدّمناه. استناداً إلى مصداقيّة وقدم الكتاب المقدّس. واعتراف قوى الشّرّ الروحيّة: فمن يدعي نقض أقوالنا لا بالجمعية اللفظيّة بل بنفس الصيغة التي توخينا، المرتكزة على الحقيقة؟ لكن رغم ظهور حقيقتنا للجميع، ما زال المشكّكون أمام صلاح ديننا الذي بات معروفاً بالتجربة ومن خلال تعامل الناس معنا. يعتبرونه لا نهجاً ربّانياً بل نوعاً من الفلسفة: فهو يشترك حسب أقوالهم مع الفلاسفة في الإقرار والمناداة بمثل البراءة والبرّ والصبر والاعتدال والعفة. لماذا لا نساوى إذن بمن نقارن بهم من حيث الأفكار في ترخيص مذهبنا وحصانته من العقاب؟ أو لم لا يدعون هم أيضاً بصفتهم نظراءنا إلى نفس الفروض التي نتعرّض لرفض أدائها إلى الولايات؟ من أرغم فيلسوفاً على تقديم ذبائح للآلهة أو القسم باسمها أو إخراج مصابيح في الظّهر لا طائل منها؟ بل إنهم يسفّهون آلهتكم علناً وبهاجمون معتقداتكم في كتبهم وأنتم تشيدون بهم: ويغلظ كثيرون

منهم في نقد الحكام فتؤيدونهم، بل تكافئونهم بالتّمثيل والجرابات ولا تلقون بهم إلى الوحوش. لكن لذلك مبرّره: إذ يدعون فلاسفة لا نصارى، واسم الفلاسفة هذا لا يطرد الشّياطين: ولا غرو فهم يعدّون الشّياطين في منزلة دون الآلهة مباشرة: سقراط* مثلاً كثيراً ما كان يقول: "إن شاء شيطاني!" ولئن أبان في إنكاره آلهتكم أنّه علم شيئاً من الحقيقة فإنّه أمر في آخر حياته بذبح فروج لأسكولا بيوس* إكراماً بلا شكّ لأبيه أبولون* الذي أعلن أنّ سقراط* أحكم النّاس*. فيا لتهور أبولون* إذ شهد بالحكمة لرجل ينفي وجود الآلهة. بقدر ما تتعرّض الحقيقة إلى الكراهية، يصدّم المدافع عنها بصدق، بينما يُشرفّ بهذا الاسم العظيم عند مضطّهديها من يحرفها وينحلها، بينما الفلاسفة، أولئك المضلّون المستهترون بالحقيقة، يدعونها وهم يعادونها، ويفسدونها بادّعائها كأناس يطلبون المجد، يلتمسها النصارى حتماً ويقدّونها بنزاهة كأناس يحرصون على خلاصهم. لسنا بالتّالي سواء في العلم ولا في العمل كما نظنّون: بأيّ قول ثابت أجاب طاليس* سيّد الفلاسفة الطّبيعيّين كرويسوس* الذي جاء يسأله في الرّبوبيّة فتهرّب مرّة تلو أخرى بعد انقضاء مهلة التّفكير؟ أيّ حرفيّ نصرانيّ يجد الله وبيّنه وينسب له بحقّ كلّ ما يبحثون عنه بشأن الألوهيّة وإن زعم أفلاطون* أنّ اكتشاف صانع الكون غير يسير، وصعبٌ إن اكتشف تفسيره للغير. أمّا إن فوضّل بيننا في العفة فإنّي أقرأ في حكم الأثينيين

سقراط أحكم النّاس: ذاك ما أعلنت عزّافة أبولون بدلفى. وكان يضحى لأسكولا بيوس بديك روميّ، وذكر أفلاطون على لسان سقراط في آخر كلماته في حوار فيديون أنّه مدين للإله بديك فوعده أفريطون بتوفيته.

على سقراط بندا يدينه كمفسد الشباب؛ بينما لا يتخذ المسيحي عن المرأة بدلا: تنبئنا أخبار الفلاسفة كيف كان ديوجين* يلتهب شهوة بين أحضان المومس فرينة*. وأسمع أنّ سبيوسبوس* تلميذ أفلاطون قُتل بالزنا: أمّا النصراني فيولد منذورا كرجل لزوجته فقط. وديمقريط* الذي فقأ عينه لأنه كان لا يستطيع رؤية النساء دون تشهيهنّ ويتعذب إن لم يظفر بهنّ بإصلاحه هذا يقرّ بعبوديته لشهوته بينما لا يرى المسيحي المرأة بعينه السليمتين فهو بالروح أعمى عن الشهوة. فإن جادلت في كرم الخلق فهذا ديوجين* يطأ بقدميه الموحلتين بسط أفلاطون* المليئة كبرا بكبر من نوع آخر، أمّا النصراني فلا يتكبر ويرتكب الإساءة حتى إزاء الفقير. وإن حاجبت حول التواضع، فمعلوم طموح فيثاغور* عند الثوريين* وزينون* عند البربانين* إلى الرياسة، أمّا النصراني فلا يطمح حتى لمنصب ناظر بلدي*. وإن نازعت حول دعة النفس، فبعكس ليكرغوس* الذي اختار إمانته نفسه جوعا لأنّ اللاكوثيين* حوِّروا قوانينه، يحمّد النصراني حتى وهو يدان؛ وأمّا إن قارنت بيننا في الأمانة، فمعروف لدى الجميع كيف أنكر أنكساغوراس* ما استودعه

سبيوسبوس: Speusippus أستاذ الأكاديمية بعد موت أفلاطون، توفي حوالي 338 ق م.

الثوريون: Thurii يسكنون جنوب إيطاليا.

برينة: Priena مدينة كانت تقع قديما على مصبّ ميندّر بتركيا وتبعد اليوم حوالي 10 أميال على الساحل.

أمين: تلاعب بلفظ fidelis الذي يعني في نفس الوقت الأمين والمؤمن، التابع لدين ما.

أنكساغوراس: Anaxagoras 500-428 ق م فيلسوف درّس في أثينا اتهم بالكفر ففرّ إلى لبساقة وأمات نفسه بالجوع، يرى أنّ السديم الأصليّ المكتون من ذرات شتى انتظم بتدخل عقل لا محدود وسرمدّي هو "التوس".

ضيوفه، بينما يدعى النصراني أمينا* حتى من خارج ملته، وإن نازعت عن المروءة، فخلافا لأرسطو* الذي دفع بنحو مخز صديقه هرمياس* إلى الهلكة لا يؤذي النصراني حتى عدوه. أرسطو* هذا عوض أن يعظ الإسكندر* كان يتملقه بنحو مخز كأفلاطون* الذي باع نفسه للحاكم ديونيسوس* من أجل بطنه، وأرستيبوس* في رداءه الأرجواني وحتّ مظاهر الوقار كان يعيش في المفاسد؛ وهيبياس* لقي حتفه وهو يخون مدينته؛ بينما لم يحاول أي نصراني فعل ذلك ثارا لإخوانه الذين يبادون بكلّ ألوان الوحشيّة. قد يقول قائل إنّ من بيننا نحن أيضا من يحدون عن نطم شريعتنا، لكننا إذكّ نكفّ عن اعتبارهم نصارى، بينما يظلّ الفلاسفة حتى بعد تلك الفعال يتمتعون باسم وشرف الحكمة عندكم. ما وجه الشبه إذن بين الفيلسوف والنصراني؟ بين تابع يونان وتابع السماء؟ بين من ديدنه الصّيت ومن ديدنه الحياة؟ بين من يعمل بالقول ومن يعمل بالفعل؟ بين من يبني ومن يهدم؟ > بين صديق وعدوّ الضلال؟< بين مزوّر الحقيقة وصائنها؟ بين مختلسها وحارسها؟

هرمياس: Hermia وال يونانيّ ملك فارس على جزء من أسية الصغرى عاش ببلاطه فترة أرسطو 384-322 ق م.

أرستيبوس: Aristippus القيروانيّ نسبة إلى Cyrena منطقة برقة وشجّات بليبيا الحاليّة 435-366 ق م مؤسس مدرسة فلسفيّة ترى أنّ الخير يتمثل في اللذات الحسيّة الخاضعة لتحكم العقل، ربّما تأثر بتعاليمها أبيقور*.

هيبياس: Hippias سفسطائيّ من القرن الخامس، يصوّر أفلاطون في حوار "بروتاغوراس".

47 - تنديد بالازدواجية في التعامل معهم ومع غيرهم.
الفلاسفة استقوا حكمتهم من الكتاب المقدس

> الحقيقة إن لم يخطئ ظني سابقة على كل المذاهب.
ولقد أشرت إلى أن أقدمية الكتاب المقدس السابق وضعه
للناس جعل من السهل الاعتقاد بأنه هو الكنز الذي أتت منه
كل حكمة لاحقة؛ ولولا حرصي على الحد من طول مقالي
لنوسّعت في إثبات ذلك أيضا. من من الشعراء وأدعياء الحكمة
لم يستق قط من ينبوع الأنبياء؟ من هنا قطعاً روى الفلاسفة
ظماً فكرهم، فبدوا بما استمدوا متاً شبيهين بنا*؛ من هنا
أيضا في اعتقادي استبعدت الفلسفة قوانين بعض الشعوب.
أعني سكان طيبة* وإسبرطة وأرغوس*. فهم أناس يحاولون
التشبه بنا. ولأنهم مولعون بالشهرة والخطابة فقط. كلما
وجدوا بفضل فضولهم شيئا هنا أو هناك في الكتاب المقدس
انتحلوه كعملهم الذاتي. وهم لا يؤمنون بأنه رباني ليمتنعوا عن
خريفه، ولا يفهمونه بقدر كاف إذ ظلّ غامضا إلى ذلك العصر.

الفلاسفة استقوا حكمتهم من الكتب السماوية: فكرة عبّر عنها كذلك في
19. ووجدتها عند الكتاب اليهود هرميبوس وأرسطوبولوس وفيلون الإسكندراني
ويوسفوس. ثم عند يستينوس الشهيد (الذي اعتبر أن الروح القدس الذي
أوحى إلى أنبياء بني إسرائيل ألهم كذلك حكماء اليونان). ووجدتها لاحقا
عند الغزالي في "المنقذ من الضلال" فيما يتعلق خاصة بالفلسفة العملية
(الأخلاق والسياسة). وهي سلاح ذو حدين. إذ تشير البحوث التاريخية مثلا
إلى أن تشريعات كثيرة من العهد العتيق مستوحاة من قوانين شعوب أخرى.
كشرايع حمورابي. ووجد كذلك تأثيرا للملاحم السومرية والبابلية على قصة
الخلق التوراتية. ولأقوال الحكيم أحيقار وزير سنحاريب ملك نبوى على أدب
الحكمة فيه (مثلا سفر الأمثال أو الجامعة أو ابن سيراخ أو طوبيا).
طيبة: Theba مدينة يونانية في بيوتية، شمال شرق أثينة. أسسها الفينيقي
قدموس. وهي غير طيبة التي في مصر.

معتما حتى على اليهود الذين كان يبدو خاصا بهم*. فبقدر ما
كانت الحقيقة بسيطة، كانت محاكمة البشر المعرضة عن الإيمان
تعتثر. فجزّتهم إلى خلط ظنّيّاتهم بما وجدوا فيه من اليقينيّات.
فعلا لما وجدوا الله لم يتحدّثوا عنه كما وجدوه، بل راحوا يهاترون
حول ذاته وصفاته وجوهره وحيّزه. فزعمه بعضهم لاماديا
وآخرون ماديا. شأن الأفلاطونيين والرواقيين*. والبعض ذا طبيعة
ذريّة والآخرين ذا طبيعة عدديّة، على رأي أبيقور* وفيثاغور*.
وآدعى غيرهم أنه ذو جوهر ناريّ حسب ما تراءى لهيرقليط*.
وأكد الأفلاطونيون* عنايته بالكون بينما ذهب الأبيقوريون*
إلى عطلته وغيابه عن شؤون البشر إن جاز التعبير. جعله
الرواقيون* خارج الكون. كالحزاف يدير من الخارج كتلة العالم.
وزعمه الأفلاطونيون* داخل الكون كالرتبان الذي يسير من الداخل
سفينته. واختلفوا حول الكون نفسه، إن كان قديما أو محدثا.
فانيا أو أبديا؛ وكذلك حول طبيعة النفس، فزعمها البعض
إلهية خالدة والآخرين قابلة للفساد؛ هكذا أدخل كل أو بدل فيه
على هواه. ولا عجب أن خرّف بدع الفلاسفة الكتاب العتيق؛ فإن
قوما من بذرتهم خرّفوا كذلك ديننا الأحدث مولدا بأفكارهم
الظنّية إلى أحكام فلسفية، فحادوا عن السراط الواحد إلى
ظلّ يبدو خاصا باليهود: تأكيد للطابع الإنسانيّ العام للعهد القديم. لوحده
مع العهد الجديد.
هيرقليط: Heraclitus 576-480 تقريبا. من أوائل الفلاسفة اليونان. أكد الحركة
والضيرورة واجتماع الأضداد مؤقّتا بعكس معاصره برمنيدس الذي أكد على
الثبات والديمومة. رأى فيه هيجل رائدا لنظريّته الجدليّة.
الشعب التصرانية: منذ القرن الثاني كانت توجد شيع عدّة من غنوصيين
ومنناتيّين ومذاهب شتى حول طبيعة المسيح. لكنّ أهمّ الانقسامات أتت
خصوصا بعدما صارت المسيحية دين الدولة في أوائل القرن الرابع.

سبل منحرفة متشعبة : نقول ذلك كيلا يبدو لأحد من تنوع التحل المعروف عن ديننا أننا نشبهه الفلاسفة ويحكم من هذا الاختلاف بقصور الحقيقة، لكننا نسارع إلى إخطار المحرفين عندنا بأن معيار الحقيقة ما أتى من المسيح ونقله أصحابه الذين من الثابت أن أصحاب البدع المختلفة متأخرون عن عصرهم*. كل تلك المذاهب بنيت ضد الحقيقة على أساس الحقيقة نفسها، وذلك الزيف من عمل أرواح الضلال، هم الذين دسّوا زورهم في هذا الدين المنقذ، وأدخلوا إليه خرافات أرادوا بها، لشبهها بالحقيقة، هدم مصداقيتها، أو اغتصابها، كيلا يرتئي أحد تصديق التنصاري لأنهم ليسوا شعراء ولا فلاسفة، أو يرى الشعراء والفلاسفة أحق بالتصديق لأنهم ليسوا نصاري. لذا يسخرون منا إذ نذر بأن الله سيحاسب البشر: فالشعراء والفلاسفة أيضا يجعلون محكمة في العالم السفلي؛ وإن أُنذرتنا بجهنم*. معين النار الخفي الكائن تحت الأرض والمعد للعقاب، ضحكوا منا، فلهم ما يشبهها في أساطيرهم: نهر من النار في ملكة الأموات يدعونه بيريفليغيتون*. وإن ذكرنا الجنة، محلّ النعيم الذي أعدّه الله لاستقبال أرواح الصّديقين، ويعصمه برزخ من نار عن معرفة عالمنا الأرضي، استأثرت بتصديقهم حقول إيزيون*. فأخبروني أرجوكم من أين أتت للفلاسفة والشعراء هذه المفاهيم التشبيهية بما لدينا؟ لم تأت من غير أسرارنا المقدسة،

جهنم: Gehenna كلمة عبرية (مشتقة من وادي هتوم حيث كانت حرق القمامة، ولم ينشأ الاعتقاد في الحساب الأخرى عند اليهود إلا في عصر متأخر، بعد السبي البابلي) وبيريفليغيتون Pyriphlegethon نهر من النار وإيزيوم Elysium حقول النعيم المقيم بالعالم السفلي في الأساطير.

لكن ما دامت قد أتت من أسرارنا المقدسة، لكونها سابقة عليها، فالأصل أحق بالتصديق من نسخهم المقدّة التي جُد عندهم التصديق؛ لو أتت من أخيلتهم، لعدت أسرارنا المقدسة إذن نسخا لما هو لاحق لها، وذلك محال يخالف الواقع، فالجسم لا يتبع ظلّه ولا الحقيقة صورتها أبدا.

48 - تأكيد البعث، وقدرة الله عليه

والآن إن أكد لنا فيلسوف، كما يقول لابريوس* بناء على مذهب فيثاغور*، أن البغل ينقلب إنسانا والحيّة امرأة، وعود الحج لإثبات هذا الرأي مسخرا لذلك قدراته البلاغية، أليس محتملا أن يميل الرأي العام إلى تصديقه، وأن يُقنع الناس كذلك بتحريم لحوم الحيوان على هذا الأساس؟ أن يقتنع كلّ بذلك، مخافة أن يأكل دون قصد، عند تناول لحم بقر، من بعض جدوده الأقدمين؟ لكن لما يعد التنصاري ببعث الإنسان إنسانا، ومعاد قيوس قيوس، يعنفه الشعب ويطرده لا بصيحات التشنيع وحدها بل قذفا بالحجارة، إن كان ثمة داع إلى عودة النفوس الإنسانية إلى الأجسام، فإنه يقتضي عودتها إلى الأجسام ذاتها، فبذلك تكون قد عادت فعلا، أي صارت إلى ذات ما كانت؟ فهي إن لم تعد إلى ما كانت قبل، أي إلى تقمص جسم إنساني هو نفس الذي كانت فيه، فلن تكون بعد ذات ما كانت؛ > وإن لم تعد ذات ما كانت فكيف يقال إنها عادت؟ فإما تكون قد صارت شيئا آخر ولن تكون إذّاك هي ذاتها، وإما تبقى هي هي وإذّاك لن خلّ في غير الجسم الذي أتت منه، سنحتاج إلى متسع من الوقت ومصادر متعدّدة إن أردنا التلهي لابريوس: 105-43 Laberius ق م، كاتب تمثيليات هزليّة حركيّة mimae .

بمعرفة أي حيوان بدا لكلّ أنّه سيتحوّل إليه؛ لكن أولى بنا التركيز على طرحنا أنّ الأحقّ بالتّصديق وبشأ أو أن يعاد من الإنسان إنسان، ومن أي شخص شخص، ولا شيء سوى إنسان. بحيث تُرجع النّفس بالصفّة ذاتها إلى الشّاكلة البشريّة ذاتها. حتّى إن لم تكن بذات الصّورة تماما. وما أنّ غاية المعاد الحساب، فلا بدّ أن يُعرض كلّ على الله مثلما كان لينال منه جزء أعماله، إن خيرا أو شرّا؛ لذا ستُبعث الأجسام أيضا، إذ لا يمكن أن تحسّ النّفس شيئا بمفردها، بدون سندها المادّي، أي الجسد، وكذلك لأنّ الأنفس لا تستحقّ أن تلاقى حساب خالقها بدون الجسد الذي أتت كلّ أعمالها وهي بداخله، لكن قد تقول: كيف تُبعث الأجساد وهي رميم؟ ألا انظر إلى نفسك أيّها الإنسان وستجد ما يحملك على التّصديق بذلك؛ تفكّر في ما كنت قبل أن تأتي إلى الوجود؛ عندما طبعا فلو كنت شيئا ما لتذكّرتَه حتما، أنت الذي قبل أن تكون لم تك شيئا، وتُصار لا شيء بعدما تنتهي من الوجود، لم لا يمكن أن تُبعث مجدّدا من العدم بمشيئة نفس الخالق الذي شاء إيجابك من عدم؟ أفي ذلك عليك جديد؟ أنت الذي لم تكن موجودا أوجدت، وبعدهما ينتهي وجودك ستعود إلى الوجود؛ اشرح لي كيف أوجدت، وسلّ إذّاك كيف ستعود إلى الوجود؛ فلا شك أنّ إعادتك إلى الوجود أيسر ما دمت قد وُجدت يوما، إذ ما كان صعبا كذلك جعلك ما لم تكن أبدا، هذا في اعتقادي تشكيك في قدرة الله الذي أنشأ جسدها الكون المترامي من لا شيء، وبيّ فيه من الخواء والعدم الحياة بالروح الذي تستمدّ منه كلّ الكائنات الحياة وجعل لنا فيه مثلا يشهد ببعث الإنسان. الضياء

يختفي كلّ يوم ليسطع من جديد، ويخلفه الظلام ليرتل بدوره في تعاقب مائل، والنجوم تموت ثمّ تحيي من جديد، والفصول تبدأ مجدّدا من حيث انتهت، والثّمار تنتهي ثمّ تعود، والبذور لا تُنبت وتؤتي أكلها إلاّ بعد انحلالها وتفسّخها، كلّ شيء يحفظ بالموت بقاءه، كلّ شيء بالموت يعود إلى الحياة، وأنت أيّها الإنسان، حامل هذا الاسم العظيم، لو عرفت نفسك مستوحيا حتّى شعار بيثية*، ملك كلّ الخلائق المعدّة للموت والمعاد، أتخالك تموت صائرا إلى الفناء؟ أينما تندثر ستقوم، وأيّا كان العنصر الذي سيطحنك وبتلعك وبلاشيك وبحيلك عدما، فإنّه سيعيدك؛ فالعدم نفسه ملك من كلّ الأشياء ملكه، تسأل: ستستمرّ إذن سنّة الموت والبعث بلا نهاية؟ لو قضى بذلك ربّ الكون لكان عليك أن تمتثل مرغما لناموس طبيعتك؛ لكنّه في الحقيقة لم يقض بغير ما أنبأنا به مسبقا، فإنّ حكيمته التي صاغت الكون على نسق من التّنوّع بحيث تأتلف كلّ الأشياء في وحدة من أضداد شتّى: من الخلاء والملاء، من الحيّ والجما، بما يدرك وما لا يدرك، من النّور والظلام، من الحياة نفسها والموت، جعلت الدّهر محكوما بهذه السنّة الثّنائية عينها، فهذه الدّار الأولى التي نعيمها منذ بدء الخليقة تسير، بحكم طابعها الزّمني، إلى منتهاها، وستليها الأبدية التي نرجي والتي ما لها نهاية، لما يآزف إذن المنتهى أو البرزخ والحدّ الفاصل، لتبدّل كذلك طبيعة عالمنا الفانية فتمدّد وترخي عليها سدول الأبدية كما قدر لها، يومئذ يُبعث النّاس جميعا ليحاسبوا على ما عملوا من خير وشرّ في هذه الحياة، وينالوا إذّاك جزاءهم على امتداد الأبدية اللانهائي.

فلا موت بعد من جديد، ولا قيامة من جديد، بل سننظّل دوماً كما نحن الآن، بلا تغيير: عبّاد الله خالدين عند الله على الدوام، ألبسوا الجوهر الخاصّ بالأبدية، والكافرون ومن لم يخلصوا دينهم لله في عذاب النار خالدون، بالمثل ألبسوا جزاء طبيعتها الإلهية عدم الفساد. الفلاسفة أيضاً يعرفون الفرق بين النار الخفية والعادية؛ فشتان ما بين النار المعدة لاستخدام البشر والمعدة لحكم الله، سواء نزلت من السماء صاعقةً أو صعّدت من الأرض عبر قنن الجبال، فهي لا تبديد ما حُرق بل تظّل تفتنيه وترفؤه، لذا تظّل الجبال تلهب باستمرار، ويظّل من رجمته صاعقة السماء قائما فلا خيله بعد رمادا أية نار؛ في ذلك شهادة على النار الخالدة، ومثل للعقاب المؤبد الذي يغذّيه باستمرار حكم الله في الخطأة: الجبال تحترق وتظّل راسية، فما بالك بالجرمين وأعداء الله؟

49 - استسخاف أفكارهم لا يجيز اضطهادهم

هذا ما تدعونه عندنا نحن فقط افتراضات بلا سند، وعند الفلاسفة والشعراء قمة العلم وغاية الفهم؛ هم حكماء ونحن سفهاء، هم يستحقّون التّكريم ونحن السّخرية، بل وأكثر من ذلك العقاب، فلتكن أفكارنا أباطيل وافتراضات حقاً؛ هي مع ذلك ضرورية؛ لتكن سخافات؛ هي مع ذلك نافعة، ما دامت جبر من يؤمنون بها على إصلاح أنفسهم خوفاً من العذاب الأبديّ وأملا في التّعيم الأبديّ؛ لذا لا ينبغي أن تُنعت بالأباطيل وتعدّ سخافات أفكار من المفيد افتراض صحتها؛ لا يجوز بأيّ اعتبار إدانة ما ينفع الإنسان*؛ لذلك فعندكم أنتم الافتراض المفتقر بـرقص/ يقفز: exsultat/insultat جناس مطلق.

إلى سند، هذا الذي يدين ما ينفع الناس، بل حتّى لو كانت باطلة وسخيفة، فلا ضرر منها على أحد؛ هي شبيهة بمعتقدات كثيرة أخرى عندكم لا تصدرون عليها أيّ عقاب، أساطير وأباطيل بمنجى من الاتّهام والعقاب لأنّ لا ضرر منها؛ لكن بنفس الطريقة، إن شئتم حقاً، فاحكموا بأننا نستحقّ السّخرية، لا السيوف والنيران والصّلبان والسّباع، تلك الوحشية الغاشمة لا يرقص ويقفز مرحاً* لها العامّة العمي فقط، بل يفخر بها كذلك بعض منكم يترضّون العامّة بالظلم، كما لو لم تكن لنا الحيرة في كلّ ما لديكم من سلطان علينا*، أنا نصرانيّ بمشيئتي لا شكّ، لذا ستدينني إن شئت أن أدان؛ لكن إن لم يكن بوسعك أن تفعل لي ما تستطيع إلا إن شئت، فما تستطيع إزائي تابع لمشيئتي لا لسلطانك، من هنا فبسّخف بينهج الشّعب بعذابنا، ونحن فعلاً أحقّ منه بالفرح الذي يستأثر به لأننا نؤثر أن تدينونا على أن نعرض عن الله؛ بالعكس يجب أن يألم من يبغضوننا لا أن يفرحوا، لأننا نلنا ما اخترنا.

50 - هم مثل أعلى في التّضحية من أجل دينهم؛ حدي

الولة وشجب غوغائيّتهم

تقول: "لماذا تشكون إذن من اضطهادنا، إن كنتم تريدون معاناته، بينما ينبغي أن تحبّوا من تتلقّون منهم العذاب الذي تريدون؟" صحيح أنّنا نحبه لكن كما في الحرب التي لا يعاني أحد ويلاتها بطيب خاطر، لما يكون عليه أن يخاف على نفسه ويعرّضها للخطر، مع ذلك يحارب بكلّ قواه، ويبتهج بالانتصار في المعركة من كان يشكو أهوال المعركة، لأنّه ينال من ذلك مجداً ومغنا؛

نحن أيضا نخوض معركة لما ندعى إلى المحاكم لناضل هناك في سبيل الحق مخاطرين بحياتنا؛ وإنما التصر نيل ما حاربت من أجله؛ ونصرنا نحن مجده نيل رضى الله وغنمه الفوز بالحياة الأبدية. لكننا نخسر لا شك إن حافظنا على سلامتنا؛ هكذا إذن ننتصر لما نُقتل وننجو لما نخسر: لكم اليوم أن تهزؤوا منا وتدعونا هواة الحطب والعواميد إذ تربطوننا إلى عمود وخرقوننا على كومة من الحطب: تلك هيئة نصرنا. ذلك زيه الموشى بالضعف، على تلك المركبة ننتصب مظفرين. لا عجب والحال تلك ألا نروق للمغلوبين؛ ولا عجب أن يتصورونا يائسين ومسعورين؛ لكن ذلك اليأس وذاك السعير يرفعان عاليا راية الفضل عندكم إن كانا في سبيل المجد والصيت*. ترك موقوس* يده في الهيكل بحض إرادته: فيا لسمو نفسه! وألقى أنباذقليس* بكل جسمه في أتون إتنه* بكتانه*: فيا لثبات جنانه! وقدمت مؤسسه فرطاج* نفسها لنار المحرقة ناجية من زيجة ثانية: فأى مجد لوفائها وعفتها! وقبل ريقولوس* أن يصلب جسمه كيلا يعيش هو مقابل عديد

أنباذقليس: 435-490 Emedocles ق م تقريبا. آخر المفكرين السابقين لسقراط. تنسم قصيدته "في طبيعة الأشياء" بالغموض. له نظرية في نشأة الكون تمزج فكرة الإيونيين عن العناصر الأربعة وفكرة برمنيدس عن الأيس. أو الكائن كإله كروي محيط. وفكرة هيرقليط عن التضاد. وهو عنده بين الحب والبغض. كمصدر لابنناق وتطور الكائنات. ألقى بنفسه في بركان إتنه ليكون نظير الآلهة. نسب إليه الإسلاميون كصاعد الأندلسي والقسطي وابن أبي أصيبعة والشهرستاني أفكارا منحولة تأثر بها الصوفي الأندلسي ابن مسرة. مؤسسه فرطاج: الملكة عليسة/ديدون. أحرقت نفسها وفاء لزوجها كاهن صور بعدما ألح يرياس ملك اللوبيين للزواج بها (حسب يوستينوس) أو أسفا على أينياس* حسب الأنيادة: 4.

ريقولوس: Regulus قائد رومانى أسره القرطاجيتيون في الحرب الأولى 255 ق م وغدبه حتى الموت حسب الرومان

الأعداء. فيا له من رجل شجاع انتصر على أعدائه حتى وهو أسير! ولما كان أنكسرخوس* يضرب حتى الموت بمدق شعير. كان يهيب بجلاذه: "اضرب. اضرب هيكل أنكسرخوس* فإنك لا تضرب أنكسرخوس*". فيا لعلو نفس الفيلسوف الذي مزح حتى على ميته الفظيعة. ولا حاجة بي إلى ذكر من حصلوا بسيوفهم أو بميته أخرى ألطف على الثناء والإشادة؛ إذ هؤلاء أنتم فعلا تقدمون الأكاليل في سباق التعذيب. وهناك مومس أتيكية* بعدما أعيت جلاذها قطعت لسانها وبصفتها في وجه الطاغية المستعرجيظا. لنفقد معه النطق فلا تقر بشركائها في المؤامرة لقلبه حتى لو أرادت وقد غلبها التعذيب. وزينون الإليتي* لما سأله ديونيسوس* عما تقدم الفلسفة فرد: "جاهل الأثم". ظل يعبر بجلاذه تحت سياط الطاغية عن رأيه حتى الموت؛ لا شك كذلك أن جلد اللاكوثيين* بعنف أمام أقاربهم المشجعين كان يمنح الأسرة من مجد الاحتمال بقدر ما يريق من دماء أبنائها. فأى مجد غال رفيع. لأنه إنساني. ذلك الذي لا يعدد لاستخفافه بالموت وألوان التعذيب وهما مسعورا ولا اعتقادا يائسا، ويجوز له حمل الألام من أجل الوطن أو الدولة أو الصداقة بينما لا يجوز حملها في سبيل الله. لكل هؤلاء تقيمون تماثيل وترسمون صورا وتخطون مآثرهم تخليدا لذكرهم؛ واضح أنكم أنتم أيضا تقدمون قدر ما تستطيعون بهذه النصب نوعا من البعث للموتى: أما من أنكسرخوس: Anaxarchus فيلسوف من مدينة أيديرة. من أتباع

مذهب ديمقريط في القرن الرابع.

زينون الإليتي: Zeno Eleates ولد حوالي 490 ق م تلميذ برمنيدس. مشهور بمقارفتي السهم وأخيلس والسلفاة لنفي الحركة

المنافحة

يرجو من الله البعث الحقيقي، إن حمّل الموت في سبيل الله فهو مجنون! تهادوا إذن أيها الولاة الصالحون، ستكونون أفضل حقًا عند الشعب إن ذبحتم له النصارى، عذبونا، قطعونا، أدينونا، اسحقونا؛ دليل براءتنا هو ظلمكم؛ لذا يتحمّل الله أن نتحمّل تعذيبكم؛ وإتكم في حكمكم مؤخرًا بإلقاء مسيحيّة إلى قوَاد بدل الأسد* اعترفتم بأنّ شيّة في العفّة تُعدّ عندنا أفضح من أيّ عقاب وأيّة ميتة، في نهاية الأمر لا جدي شيئا فسوتكم مهما تفتنتم فيها، فهي فتنة للتنا؛ وعدنا يزداد بقدر ما تقطفون رؤوسنا؛ فبذر هو دم النصارى*. كثيرون من حكمائكم يدعون إلى حمّل الأثم والموت، كشيشرون* في رسائله التسلّكانيّة، وسينيكاس* في "نوابه"، كديوجين* أو بيرون* أو كالتينيكوس*؛ لكنّ أقوالهم لا جد من الأتباع مثل النصارى الذين يعلمون بالأفعال. هذا الإصرار الذي تعيبونه علينا درس بليغ؛ إذ من لا تهزّه رؤيته وتحدوه إلى البحث عن جليّة أمرنا؟ ومن لم يدخل إذ بحث عنها في ديننا؟ ومن لم يرغب إذ دخل في الاستشهاد حتّى ينال نعمة الله بالتّمام ويفوز بمغفرته الكاملة لقاء دمه؟ فبالشّهادة يفتدي كلّ ذنوبه؛ لذا نشكركم هنا على أحكامكم، فكما هي الحال في تعارض الأمور الرّبانيّة والبشريّة، لما تدينوننا يغفر الله لنا.

إلقاء نصرانيّة إلى قوَاد بدل الأسد: يستخدم جناسا بين leonem و lenem يصعب نقله إلى العربيّة.
شيشرون: Cicero 106-43 ق م، سياسيّ وأديب رومانيّ، له عدّة خطب وكتب في السّياسة والبلاغة.
سينيكاس: Seneca 1 ق م-65 م فيلسوف رواقسيّ رومانيّ، له كتب حكمية ومسرحيات، معلّم نيرون ثمّ مستشاره، انتحر.
بيرون: Pyrrhon ولد حوالي 340 ق م، مؤسس البيرونيّة، وهو مذهب يدعو إلى الشك وتعليق الحكم.